«رئيف خوري وتراث العرب»

مراجعة لكتاب سماح ادريس

سمير أبو حمدان

هل تُرانا لا زلنا مقصّرين مع رئيف خوري بعد كتاب سمينٍ عنهُ وضعه قلمٌ يتسّم بالنضارة والفُتُّوة؟ هل نُتّهم بتقصيرٍ أو استنكاف بعد أن تقدَّمنا ناقدٌ جسورٌ هو سماح إدريس، وابن أديب جسور هو سهيل إدريس، في الإماطة عن جوانب لاتني معتمةً في فكر رئيف خوري وأدبه؟ نفضّل عدم الإجابة عن هذين السؤالين مُفسحين في المجال للقارىء الكريم أن يهتدي بنفسه إلى إجابةٍ من خلال تصفُّحه لكتاب «رئيف خوري وتراث العرب» الصادر حديثاً عن دار الآداب في بيروت، فلسوف يجد القارىء أن أحداً ما وفّى رئيف خوري حقه مثلما فعل الناقد سماح ادريس الذي يبدو لنا، في كتابه الذكور، ذا باعٍ طولى في النتاج المتعدد الأوجه والمتعدد الصفات لواحدٍ من أعلام الفكر والأدب والنقد في النصف الأول من هذا القرن.

بكلمةٍ أكثر إبانةً وتحديداً فإن ما وضعه سماح إدريس بين أيدينا حول رئيف خوري، الناقد والأديب والمفكر، كافٍ لأن يحوط بمجمل الأرجاء والآفاق التي رادها رئيف خوري بقلمه المقتحم وحسه النقدي المرهف. من هنا القول إن ما اتُّهمنا به؛ من قبلُ، لجهة التقصير بحق رئيف خوري، قد سقَطَ وأصبح الاتهام غير ذي موضوع ومن غيرَ سَنَدٍ يسنده.

في الكتاب

يدشن سماح ادريس مؤلَّفه بفصل حول ما يمكن أن نسمّيه محطاتٍ جغرافية ـ فكرية في حياة رئيف لنرى على الفور أن ثمة ست محطاتٍ رئيسية أسهمت بسهمٍ كبيرٍ في التكوين الفكري والأدبي لهذا الرجل، وهي تبدأ بسنديانة الضيعة إلى أن حطَّ عصا ترحاله في مصر، مروراً بالجامعة الأميركية في بيروت حيث كان له قرصٌ كبير في أعراسها الفكرية والسياسية؛ ومروراً أيضاً بفلسطين حيث أكبَّ مع رفقةٍ له على إقامة التظاهرات والاضرابات التي سبقت ثورة ١٩٣٦، وصاغَ مع بضعة مثقفين عرب مطالب (الاضراب الكبير) وتتلخص في وقف الهجرة الصهيونية ووقف بيع الأراضي وإقامة حكومةٍ وطنية وتجريد الصهاينة من الأسلحة، كما كان من بين مدعوين إلى مدنٍ كالخليل ونابلس ليخطب في الناس محرضاً وحاضّاً على الثورة؛ ومروراً أيضاً بسوريا حيث سينشىء هناك جريدة دعاها «الدفاع» كيما تكون، كما روّجت في شعارها، جريدةً يوميةً سياسية تتولى المطالبة بالديمقراطية الصحيحة في وجه خطر النازية المستفحل، ولأجل تكوين جبهةٍ عالمية يكون لفرنسا الحرة مكانةٌ مرموقة فيها. وإلى مواقف الجريدة السياسية فقد اشتملت

أيضاً على مقالاتٍ جمة في الفلسفة والأدب. وإن ننسَ فلن ننسى، من بين هذه المحطات، ما كان لموسكو من دور في تكوينه الفكري، وذلك بعد أن أمَّها عام ١٩٤٧ مع رهط من الرجال يمثلون التعاون الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي. وقد تأثر رئيف بالشأو الثقافي والحضاري الذي بَلَغه هذا البلد الذي كان لا يزال ينفض عنه غبار الحرب العالمية الثانية، وكان له هناك كتيب عنوانه: «الثورة الروسية: قصة مولد حضارة جديدة». أما المحطة الأخيرة، فقد كانت على ضفاف النيل في مصر «الهبَّة القومية» التي جعلت رئيف يزداد إيماناً «بالفكر العروبي التقدمي».

إلا أن رئيفاً، وبالرغم من تطوُّفه في هذه الديار الغريبة والقريبة، ظل يحنّ إلى السنديانة الأولى إذ بات حفيفها جزءاً من كيانه الخاص «ففي كل منعطفاته الفكرية والايديولوجية ظل لبنان نقطة البركار في مدار تفكيره السياسي والاجتماعي. لذلك لا يصح اعتماد لبنان «محطةً» من محطات رئيف الجغرافية ـ الفكرية، بل هو الأرض التي زرع فيها نتاج عقله وقلبه الكبيرين» (ص ٢٥).

ولكن ما هي الروافد التي رَوَت الأغراس الفكرية لرئيف خوري؟

بالنظر إلى ما يشاهده سماح إدريس فإن الرافد الأول لثقافة هذا الرجل وتكوينه لم يكن غير الثقافة العربية الإسلامية ـ فقد كان، منذ بَدْوَته الفكرية الأولى، مطالعاً مكثراً للآيات القرآنية وبخاصة تلك التي تجهر بنداء إلى الثورة ضد الطغاة والظالمين؛ بالاضافة إلى إكبابة على قراءة جانبٍ من التراث يلبي تطلعاته وبينها كتب «كالعقد الفريد» و «الأغاني» و «تزيين الأسواق» وغيرها مما يشكل أساساً، في التراث، لتفكيره المعاصر. وإن تميَّز رئيف خوري بشيء، فيما يتعلق بالتراث تحديداً، فبذلك الخزين الثقافي الذي يضم ثقافة العصر الجاهلي، وما بعده من عصور ثقافية قديمة. كما «لم تقتصر ثقافة رئيف على الميدان التاريخي والأدبي، بل تطلع إلى الناحية التطبيقية من هذه الثقافة، كصناعة الأدوية وصناعة السفن والطيران، وعلم الجبر، والفلك والطب والموسيقى والهندسة المعمارية» (ص ٣٠).

وإذ لا نرغب في إطالة المكوث عند التراث العربي، كمكوِّن أساس من مكونات رئيف الفكرية، فإننا نحبذ الانتقال إلى مكوِّنٍ آخر فعل في شخصية رئيف ما لم يفعله أي شيءٍ آخر. كان ذلك المكوّن موجوداً في الثورة الفرنسية التي أخذت على عاتقها إرساء ما أصبح معروفاً بالمبادىء الديمقراطية، ومن ثم ما أوْلَته هذه الثورة من غيرةٍ على حقوق الإنسان وكرامته.

وإذ أُعجب رئيف بهذه الثورة وبرجالاتها كما نوّهنا قبل قليل، فإن إعجابه لم يكن بأقل تجاه أولئك المفكرين الذين سبقوا هذه الثورة ومهَّدوا لها، من مثل الشاعر لافونتين ولابرويير الذي رمى العظماء بالفراغ الروحي، وآثر «أن يكون شعْباً، أي من الشعب»، بالإضافة إلى الراهب فنيلون الذي تجاسر متهماً لويس الرابع عشر بالجُور والأنانية، إلى ديدرو ومونتسكيو وفولتير وهلفتيوس ودولباخ. لكنه، إلى ذلك كله، يضمر إعجاباً بـ «الديمقراطية الشعبية الحديثة». وقد دأب رئيف على اقتطاف مقاطع وفقرات من هذا الكتاب. ولطالما استخدم أيضاً عبارة روسو التي يقول فيها: «أن الموكلين بالقوة التنفيذية ليسوا أسياد الشعب ولكنهم خُدَّامه. ويستطيع الشعب الذي ينصِّبهم أن يسقطهم كلما شاء... لا ملك بعد اليوم؛ الشعب وحده هو السيد».

إن رئيف خوري لا يتوقف عند حدٍ معين في إكباره لانجازات الثورة الفرنسية التي جعلت من الإنسان قبلتَها وهمَّها الأوحد، وذلك من خلال شرعة حقوق الإنسان التي أرستها في آب من عام ١٧٨٩، ليعتبرها مثابة «الجنى الذي أثمرته شجرةَ الديمقراطية في إبان ازدهارها». حتى أن إعجابه بما تحقق على أيدي الفرنسيين في ثورتهم عام ١٧٨٩، ظل مستمراً، مع رئيف، حتى الحرب العالمية الثانية. فقد حضّ رئيف دائماً على الوقوف إلى جانب فرنسا، الدولة الديمقراطية الأولى. ويقول في هذا الصدد: «خيرٌ لنا ألف مرة أن تكون علاقتنا مع دولةٍ ديمقراطية من أن تكون مع دولة فاشستية، وإنْ تكن الدولُ الديمقراطية لم تُذقنا الكثير من حنانها. خيرٌ لنا ألف مرة أن نكون مرتبطين بدولةٍ ديمقراطية لأننا نستطيع دائماً أن نجد في داخل الدولة الديمقراطية أصدقاء علنيين». وعلى الرغم من الفروق التي يلاحظها رئيف بين فرنسا الثورة وبين ما هي عليه اليوم، كدولةٍ كبرى لها مطامع، فإنها تبقى، بنظره، بلد الحرية والمساواة والأخاء والعلمنة.

أما المكوّن ما قبل الأخير لشخصية رئيف خوري فهو الماركسية وفحواها المادية الديالكتيكية. لكنّ مؤلف كتاب «رئيف خوري وتراث العرب» يُبدي إعجاباً شديداً «بثقافة هذا الرجل الواسعة». فهو، كما يراه سماح إدريس، متبحرٌ في قضايا الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والفن. ولعلنا، حتى نتأكد من ذلك، نكتفي بقراءة مقالته في مجلة «الدهور» والموسومة بـ «اللذة والألم»، إذ تبيِّن لنا هذه المقالة المبلغ الذي بَلَغه رئيف في إطلاعه على أفكار أعلام كبار من مثل أرسطو وأبيقور وديكارت وسبنسر وليبنتز. ولعل الكتيب الذي وضعه بعنوان «حقوق الإنسان» من ضمن السلسلة الواحدة التي دشَّن حلقتها الأولى ديمقريطس وبروتاغوراس وهي لما تنتهِ بعدُ. وبهذه المعرفة العلمية والفلسفية والتاريخية ذات النظرة النقدية الشمولية، كما يذهب إدريس، توجَّه رئيف إلى قضايا العصر والتراث، مستخدماً هذه المعرفة «بدرايةٍ وأصالةٍ وعمق تفكير وجراءة قلب وطاقةٍ على الخلق والنفاذ والاستشراف» بحسب ما يراه أيضاً الدكتور حسين مروة في دراسةٍ له تحت عنوان «رئيف خوري ناقداً».

نظريتا الأدب والنقد:

وبعد أن يعرّج الكاتب على شأن آخر أولاه رئيف خوري اهتمامه الثَّر، أعني به التاريخ العربي والأسطورة العربية، ينتقل بنا للحديث عن نظريتيْ الأدب والنقد عند هذا المفكر اللبناني اللامع على ضوء «الروافد الثقافية» كما تعرَّفنا إليها قبل قليل. ولكنّا نرى، قبل الدخول إلى منطقة الأدب والنقد، أن ننشر بقعةً من ضوء على علاقة رئيف بذلك التاريخ العربي القديم الذي شغفه كثيراً. فلطالما أبدى ولعاً لا حدود له بهذا التاريخ. لكنْ يجب أن ننبِّه، ها هنا، إلى أن علاقة رئيف بهذا التاريخ لم تدخل في باب العلاقة الودّية، حسب، بل إن همَّه انصبّ على معنى بذاته وهو الكشف عما قد يكون مخبوءاً في القلب من هذا التاريخ ومجرياته، من عِبَرٍ ومعانٍ سامية. فقد عمل دائماً على حَسْر اللثام عن مثل هذه العبر والمعاني، من طريق الكتابة الأدبية التي تتخذ القالب القصصي حيناً، والتقريري حيناً ثانياً، والتمثيلي حيناً ثالثاً، والروائي في حين رابع. ليس هذا وحسب بل عمل، وفي أحايين كثيرة، على التصرّف بأحداث ووقائع التاريخ بالشكل الذي يخدم توجّهه الفكري ـ السياسي ـ الاجتماعي. صفوة القول إن رئيف خوري تناول أحداث التاريخ العربي بتصرف، وبما يمكن أن يكون له مردودٌ حسنٌ على الفكرة أو مجموعة الأفكار التي يسعى إلى ترسيخها.

مهما يكن الأمر فإننا نكتفي بهذا القدر من الكلام على علاقة رئيف خوري بالتاريخ العربي، لِنَشْخص إلى المنطقة التي توجه نحوها رئيف خوريَ، بقضّه وقضيضه، أعني إلى منطقة الأدب والنقد الأدبي، في مسعى منه لإرساء قواعد وأسس تكون، من بعدُ، نقطة انطلاق نحو أدب ونقد يأخذان على عاتقهما همّ الإنسان والمجتمع. وبالرغم من أننا قد نتخذ موقف الضد لجملةٍ من مواقف رئيف خوري النقدية والأدبية، وبخاصة موقفه الذي ينكر مذهب الفن للفن، فإن ذلك لن يحول بيننا وبين أن نعرض لعدد من هذه المواقف.

فتَحْت عنوان «الأدب والالتزام» يخبرنا المؤلف أن رئيف خوري نَبَذ مذهب «الفن للفن». فهو، على رأيه، وهمٌ من جهة، ومن أخرى لأنه «مسعى مقصود يُرادُ به تحويل الهمّ الفني عن مشابكة الشؤون الاجتماعية الحساسة، إلى الشغل بما يسمى المواضيع الفنية الصرف». وبهذا المنحى يتوجه إلى الطعن بأتباع المذهب الطبيعي، الذي وضع أسسه الأولى «هبّوليت تين»؛ فهو يصف هؤلاء بأنهم أناسٌ ارتضوا «بالوضع الطبيعي الراهن، أي بالمجتمع الطبيعي الاستثماري الظالم».

ولكنْ ما الأدبُ الذي يقترحه رئيف خوري بديلاً من الأدب الطبيعي أو الرومنطيقي؟

لقد شدد رئيف دائماً على أن يضفي الأدبُ على الأشياء معنى أعمق مما تأتّى لها إلى الآن، أن يُسهم الأدب في خلق أو «إعادة خلق الناس خلقاً جديداً في الإرادة والتوق الإنسانيين، ويتجسد من بعدُ بخلقٍ في الواقع يحققه البشر بالنضال الدائب البصير». فعلى رأي رئيف خوري فإن التاريخ لم يكن في وقتٍ من الأوقات مجرد صنعٍ لأفكار مجردة، «وإلا لأتينا بواحدٍ من مهندسينا الفكريين المثاليين فَرَسم خارطة مجتمعنا العربي وخَلَقه في أحسن تقويم». على هذا نستطيع أن نعتبر بأن الالتزام، وفق ما يراه رئيف، لا يعني التأريخ أو التدوين لآلام البشرية ومواجعها. إن أدباً كهذا يمكن إدراجه في باب (الأدب

الشاحب). إذن، المطلوب من الأدب الملتزم أن يفضي إلى اقتراحات تنتشل البشرية من مواجعها وأحزانها. وانطلاقاً من هذا الفهم للالتزام في الأدب فإنه، أي رئيف خوري، يبجّل تلك النقلة التي حققها الكاتب الألماني توماس مان من خلال اقتحامه ميدان العمل السياسي والاجتماعي. إن هذا الكاتب، وبعد فترةٍ من الانكفاء والارتداد الذاتي حيث عاش منزوياً بعيداً عن شجون الناس والمجتمع، عاد ليضع بين أيدينا روايةً فذة سمّاها «جبل السحر». ففي هذه الرواية نستشعر تلك النكهة الساخرة إبان الكلام على أولئك الفنانين الذين آثروا العزلة، والانزواء، وإزالة أي صلةٍ بينهم وبين مجتمعهم، فكان شأنهم في ذلك شأن «أناس مسلولين اتخذوا لهم مصّحاً خاصاً على إحدى قمم الألب».

أما (الأدب الصحيح) فيراه رئيف خوري موقوفاً على هذه الأسس:

- الجرأة على مجابهة الواقع وعدم دفن الرأس في رمال الصحراء.
- فهم العوامل التي سببت هذا الواقع فهماً صحيحاً مجرداً لا خطأ فيه ولا محاباة.
- تخطيط الطريق لإزالة هذا الواقع وخلق بديل أفضل.
- المضي قدماً في هذه الطريق بغير تردد ولا هوادة إلى أن يتحقق القصد. (ص ٦٠ - ٦١).

وإذا كان الأمرُ على هذا النحو في الأدب فماذا تراه يكون على صعيد النقد؟ قبل أي شيء ينبغي ألاّ نختلف فعلاً فيما بين الناقد والأديب والمفكر في شخصية رئيف خوري. فقد كانت طريقته النقدية ونظريته الأدبية ومنهجه الفكري، مبنية على فكرة الوحدة في التنوّع. إن بعضه النقدي مدموجٌ ببعضه الفكري ببعضه الأدبي. لذا فإنه من بابٍ غير مستساغ وضع حدود بين منطقة الأدب من ناحية ومنطقة الفكر أو النقد من ناحيةٍ ثانية.

لكننا، وكيما نسهّل الأمر على أنفسنا، سوف نُجري نوعاً من الفصل بين هذه المجالات بغية النظر وحسب في منطقته النقدية. في هذا الإطار سوف نجد على الفور أن رئيف خوري الناقد يحض على الإمساك بالمِقوَد العلمي في الدراسة الأدبية. هذا ما نقع عليه، في الأقل، بين طيات كتابه «النقد والدراسة الأدبية». في هذا الكتاب حثٌّ على فهم النص الأدبي لجهة دلالاته وتركيبه، والإدراك، من بعدُ، للمرمى الرئيسي المتواري خلف سطوره. إلى ذلك كله ينبغي معرفة الظرف الذي أنشىء فيه النص الأدبي، والدافع أو الحافز الذي أفضى إلى انتاجه. كما يرى رئيف إلى ضرورة الربط المكين بين النتاج (= النص الأدبي) وبين المنتِج (= صاحب النص)؛ بالإضافة أخيراً إلى الربط فيما بين النص الأدبي والعصر الذي عُرف فيه.

لن نكتفي بهذا القدر من الحديث عن رئيف الناقد بل إن ثمة شيئاً أو أشياء أخرى لا بد من التركيز عليها؛ منها أن هذا الرجل شَجَبَ التعويل على الأفكار أو القوالب الجاهزة في العملية النقدية إذ هي «مضيعة لوقتهم (أي النقاد) ولوقت الناس». أما المثال الذي يعتمده لِعَضْد فكرته هذه فيستقدمه من لون بديع الزمان الهمذاني الذي حدَّث بحديث طَرَفة بن العبد قائلاً: «طَرَفة ماءُ الأشعار وطينتُها، كنز القوافي ومدينتُها، ماتَ ولم تَظْهرَ أسرارُ دفائنه ولم تُفتَح أغلافُ كنائزه». أما رأي ناقدنا بمثل هذا الكلام فجاء على النحو التالي: «فإذا سألتُ - كما يقول رئيف - ما هي نفسية طرفة ومسالكه في الفن وآراؤه في الحياة، وهل كان له من عائلته وزمانه وثقافته ما وجّه شخصيته حيث توجّهت، وما عسى كأن أثره في الأدب، وهل يعكس صورةً أمينةً لعصره، لم تسمع جواباً. يكفي أن طَرَفة ماءُ الأشعار!».

وقد شجَبَ رئيفٌ أيضاً ذلك الأسلوب في النقد الذي يستخدم عبارات من مثل «ما أجمل» أو «ما أروع» أو «ما أبدع». إنها نعُوت تحشو الفم والأذن وتُبقي قرارةَ القلب خاويةً.

ويعتبر سماح إدريس أن المنهج العلمي في النقد يتجلّى، عند رئيف، في أسلوبه النقدي لجهة الاعتدال في إصدار الأحكام، وعدم التطرف. فهو ينكر على الناقد تطرُّفه، سواءً أكان في باب المدح أو الهجاء. إن ميزة الاعتدال أقام رئيف برهاناً عليها في تناوله النقدي لجبران، فجبران، بحسب رئيف، لا نحسبه ثائراً مرةً واحدة كما ليس بمقدورنا أن نحسبه من الأدباء الخانعين المستسلمين لأقدارهم مرةً واحدة. إن جبران مرَّ في مرحلتين: كان في الأولى ثائراً ضد الأقطاع الديني والسياسي وضد امتهان المرأة وإنكار حقوقها، أما في الثانية فقد استسلم لجبروت المدنية عندما نشاهده ينسحق تحت عجلاتها. ويرى رئيف إلى

أن المرحلة الثانية التي عبرها جبران لم تأتِ من عدم؛ فالثورة التي عرفها جبران في مرحلته الأولى كانت، في أساسها «ثورة مستحيلة التحقيق لأنها رمت إلى نقض المدينة، أصل البشر، والرجوع إلى عهد حالةٍ طبيعية أولى»، وحسبما يعتقد رئيف فإن ما انشغَفَ به جبران ليس بأكثر من وهم لجهة أن الإشاحة عن المدنية وإدارةَ الظَّهر لها وعدم الاعتراف بها يعني رفض الاعتراف بالتاريخ البشري برمته. وكما يقول رئيف: «فلو عدنا إلى الطبيعة الأولى لوجدناها بعيدةً جداً عن العصر الذهبي الذي نحلم به لما فيها من عيشة التوحُّش». وبالنظر إلى رأي سماح إدريس في النقد الذي يقدمه لنا رئيفَ حول جبران، فإن هذه العملية النقدية لا تتجلى في فكرة (المرحلتين) عند جبران، بقدر ما تتجلى في أن الرجل ذهب إلى أن المرحلة الثانية (مرحلة الاستسلام) غير منبتّة الصلة بالأولى وإنما نمت في أحشائها منذ البداية.

وأخيراً فإذا كانت ثمة كلمة نقولها قبل أن نطوي حديثنا، فهي أن كتاب سماح إدريس الذي حمل عنوان «رئيف خوري وتراث العرب» مرجع في بابه، وهو مدخلٌ سنكون بحاجةٍ إليه في المستقبل، وذلك في السبيل إلى دخولٍ ميمون ومظفَّر لذلك الحيز الفكري والأدبي والنقدي الذي احتله في النصف الأول من هذا القرن علمٌ من أعلام الثقافة العربية في لبنان.

روايات مترجمة من
منشورات دار الآدا / بيروت

* زوربا نيكوس كازنتزكي
ترجمة جورج طرابيشي
* العراب ماريو بوزو
* الموت حباً بيار دوشين
* صورة الفنان في شبابه جيمس جويس
ترجمة ماهر البطوطي
* الجحيم جيمس جويس
ترجمة ماهر البطوطي
* الشوارع العارية فاسكو براتوليني
ترجمة ادوار الخراط
* الفارس الخامس دومينيك لابيير ولاري كولينز
ترجمة جلال مطرجي

* مدام بوفاري غوستان فلوبير
ترجمةد. محمد مندور
* حزن وجمال رواية للكاتب الياباني كاواباتا
ترجمة د. سهيل إدريس
* القط الأسود ادغار الن بو
ترجمة خالدة سعيد
* الحياة هي في مكان آخر ميلان كونديرا
ترجمة رنا إدريس
* البحار الذي لفظه البحر يوكيو ميشيما
ترجمة عايدة مطرجي إدريس
* جنة عدن ارنست همنغواي
ترجمة الشريف خاطر